من رامبو إلى كيلو: عن المثقفين والقوادين والخونة

سيف دعنا *

«أيّها المُصابون بالسفلس، يا مجانين، يا ملوكُ، يا دُمى، يا مِقْماقون
ما يهمّ باريس (ودمشق) من أرواحكم وأجسادكم، من سمومكم ورممكم؟ لسوف تنفضكم عنها، أيها الأفظاظ العفنون».
«آرتور رامبو»، غداة فاجعة أسبوع كومونة باريس الدامي

سقط خيار العدوان على عاصمة المشرق العربي، فتكسّر حلم برهان غليون وميشال كيلو وشركائهما من الوهابيين والقاعديين والتكفيريين بدخول دمشق على ظهر دبابة أميركية. غاب العقل، وانعدم الضمير. تَمَلَّكَهُم الغرور للحظة وهم يشاهدون ذلك الرئيس الأسود المصاب مثلهم بعارض ولوثة «الأنكل توم» يُلوِّحُ ببأس مارينز اليانكي الأبيض، فتطوّع كيلو بن بندر شخصياً ليس فقط لإعلان شروط استسلام دمشق، بل واستسلام روسيا والعالم كله لبساطير الشر. اختلط الأمر على هذا المقماق في لحظة دونكيشوتية فتخيّل نفسه للحظة الجنرال دوغلاس ماك آرثر يلقي شروط الاستسلام المذلّة على اليابان، ولم ينتبه إلى كل ما حصل في العالم منذ أيلول 1945 حتى أيلول 2013.

أما السوسيولوجيست، الأنوي، مسيو غليون، فلقد أثبت بمحاولة تبريره للعدوان فقدانه للخيال السوسيولوجي والحس السياسي والتاريخي، حتى لا نتحدث عن حس وطني وقومي وإنساني. «الضربة للنظام والنظام عدو الشعب»، قال على «الجزيرة» في 2013/9/9. هكذا، وبطريقة استدلالية صبيانية، وبأسلوب تحريفي مكشوف للقياس المنطقي، أصبحت أكثر الإمبراطوريات دموية في التاريخ صديقة ومحبة للشعوب وعدوة للأنظمة والاستبداد (طبعاً قرأت أرسطو يا دكتور، أليس كذلك؟). هكذا إذاً يُبرر العدوان، وكأن نتائج الحملات العسكرية تقاس فقط بالخسائر المادية المباشرة، لا بالتبعات السياسية والتاريخية البعيدة المدى والعلاقات السياسية والاقتصادية التي تؤسس لها مثل هذه الحملات العدوانية، والتي لن تكون في هذه الحالة أقل من رهن مستقبل سوريا والمنطقة ووضعهما تحت وصاية بساطير مرتزقة المارينز لسنوات طويلة. هذه المحاولة ليست عن شخص بعينه، هي تكرار لفكرة وتذكير بدور فقط. هذه المحاولة هي عن الظاهرة وليس الأشخاص.

جدلية التعليم والاستعمار: بين التجنيد والتطوع

«تعليم بهدف الإبادة» لدافيد والس آدامز (1995) هو كتاب يُفصح عنوانه عنه وعن محتواه، يقول المفكر العربي منير العكش في كتابه «أميركا والإبادات الثقافية» _ كتاب آخر يفصح عنوانه عن محتواه العميق. أذكر الكتابين هنا اختصاراً للتعبير عن الدور الخطير وحتى الوجودي للمعرفة والثقافة والمثقفين خصوصاً في الصراعات الكبرى، وأيضاً للإضاءة على جدلية التعليم الغربي وآليات استدخال الهيمنة. فهذان الكتابان ينتميان إلى أدبيات تتزايد عن تاريخ مرحلة بشعة من تاريخ الرجل الأبيض وهما أكثر من شهادة على الوحشية غير المسبوقة التي ارتكبت ضد عقول وقلوب الآلاف من أطفال السكان الأصليين في أميركا الشمالية الذين أجبروا بالقوة على التعلم في المدارس الداخلية بين أعوام 1875 ـ 1928. هذه المدارس، كما يخبرنا الكاتبان، اعتمدت مناهج وأساليب مصممة بعناية لخلق جيل من أحصنة طروادة في الحرب الشرسة لإخضاع الهنود في أميركا وتجريدهم من هويتهم وهنديتهم وإنسانيتهم. اللافت في تجربة هذه المدارس ليس وقوف الحكومة الفيدرالية وراءها، فهذا ليس خبراً، بل وقوف «مكتب الشؤون الهندية» الذي يتولى رئاسته والعمل فيه هنود شاركوا بفعالية في حصار وتجويع وقمع أهلهم القابعين في المحتجزات واختطاف أطفالهم بالقوة وإلحاقهم بمدارس ومزارع الرجل الأبيض، حيث تمارس ضدهم أبشع أنواع الجراحة الدماغية واستئصال الهوية وحتى الاستغلال الجنسي البشع لجيل كامل من الهنود.

تذكرت الكتابين وأنا أشاهد أكاديمياً فلسطينياً يعمل في الغرب يدافع على «الجزيرة» عن العدوان على سوريا (ويدفع إليه أيضاً لأن الإدارة الأميركية كانت بانتظار تحليله الفذّ على أحرّ من الجمر) باسم القيم الأميركية العظيمة، مؤكداً أنّ العدوان هو امتحانها العظيم. حالة هذا الأصْنَجْ، الذي تناسى أن فلسطين ستكون الثمن الأول لاغتيال دمشق، تذكّر بقصة رواها العكش في «أميركا والإبادات الثقافية» عن نكرة مشابه يدعى هاسانواند من هنود الإروكوا عمل مديراً لمكتب الشؤون الهندية لا غير. يُحكى أن هذا المسخ، ومن شدة افتتانه بذات القيم الأنكلو _ ساكسونية التي يروّج لها عرب أميركا اليوم ويعتبرون إحراق دمشق امتحان صدقيتها، غيّر اسمه إلى «إيلي صاموئيل باركر، وقصّ شعره، وبالغ في «بياض» مظهره حتى قيل إنه كان يحلي قَبّة قميصه المُنَشّاة بعقدة رقبة على شكل فراشة «بابيون» لا يخلعها إلا في الفراش» (ص: 19).

هذا يفسر لماذا يستخدم سكان أميركا الأصليون مصطلح «النمل الأبيض» لوصف ما يسمى «مكتب الشؤون الهندية»، هذه المؤسسة الحكومية (بعكس ما قد يفيد ويخدع الاسم للوهلة الأولى) التابعة لوزارة الداخلية الأميركية والتي أسسها المستعمر الأبيض عام 1824 لتمثل السكان الأصليين فساهمت بفعالية في المجزرة الجسدية والثقافية التي تعرض لها السكان الأصليون وشاركت بفعالية في سرقة أرضهم وملاحقتهم حتى في ما تبقى منها (أقل من 3%) لمصلحة شركات الرجل الأبيض. العبقرية في هذا الوصف لا تقتصر على استدخال كلمة «الأبيض» فقط لوصف المتأبيض الخائن لأبناء جلدته (والبياض ليس لون بشرة بقدر ما هو أيديولوجيا ومنطق). بل أيضاً في اختيار مفهوم «النمل الأبيض» ذاته، الذي يهاجم أساس البيت ويعطبه إلى درجة اعتباره آفة خطيرة في أميركا (انظر منير العكش: أنكل أوباما).

في إضاءة سريعة على هذه الظاهرة عندنا نحن العرب قبل أكثر من عام (هنا في «الأخبار») تعمدت اعتماد تمييز ديفيد سكوت بين مفهومي «مجندي الحداثة» و«متطوعيها» في كتابه «مجندي الحداثة: مأساة التنوير الكولونيالي»، الذي أعاد فيه قراءة كتاب «سي. ل. ر. جايمس» العبقري «اليعاقبة السود»، وبحث فيه في المأساة التي انتهت إليها ثورة هاييتي العظيمة. والتجنيد للحداثة أو للثقافة الغربية، كما يفيد المصطلح عند سكوت ليس إجبارياً فقط، بل ويعكس الطبيعة الجدلية للحداثة الغربية ويَنْفُذ إلى أعماق إشكاليات التنوير الكولونيالي، ويُبْرِزُ أيضاً الصراع الاقتصادي الشرس وغير المتكافئ بين الاقتصادات «البدائية» من جهة والرأسمالية الإمبريالية من جهة أخرى، والذي ينتهي عادة إلى القضاء على الأول. أهمية هذا الصراع غير المتكافئ، والذي ينتهي بإنتاج ظاهرة التجنيد للاستعمار، أنه يقضي على البنى الاقتصادية المحلية، الحامل الأساسي للثقافة المحلية، ويؤسس مادياً للاختراق الثقافي والمعرفي الغربي الاستعماري، كما يشير طلال أسد في «مجندي الحضارة الغربية». لكن ربما يكون أصل هذه الفكرة التي نعرفها اليوم بالإمبريالية الثقافية والمعرفية هو الأنثروبولوجي الماركسي ستانلي دياموند. التبادل الثقافي، يجادل دياموند، «كان دوماً موضوع هيمنة. فإما أن تقوم الحضارة مباشرة بتدمير الثقافة البدائية التي ترى أنها تقف في طريق حقها التاريخي، أو يتم إضعاف الاقتصاد البدائي بفعل اقتصاد السوق المتحضر بحيث لا يمكنه الاستمرار كحامل للثقافة التقليدية. في كلتا الحالتين، يقوم اللاجئون من الجماعات المشلولة بتبني مقاييس المجتمع الأقوى من أجل البقاء كأفراد. لكنهم مجندون لهذه الحضارة، لا متطوعون» (البحث عن البدائي: نقد الحضارة، ص 204).

حسناً، لم أجد في كل هذا تفسيراً لحالة غليون وكيلو وغيرهما من مثقفي التنظير لاستعمار أوطاننا لأن هناك الكثير من العوامل الأخرى في حالتيهما سيقود تجاهلها إلى فقر في الرؤية وتعسّف في القراءة، وتحديداً علاقتهما التي أصبحت مكشوفة بحكومات محميات النفط _ طبعاً ستكون مهزلة مقارنة غليون أو كيلو بـ«توسان لوفرتور». وطبعاً هذه الرؤية تعجز بالتأكيد عن تفسير حالة صادق جلال العظم _ خيبتنا العربية الثقافية الجديدة، وما أكثر خيباتنا هذه الأيام _ ماذا نفعل «بذهنية التحريم» بعد انضمام صاحبه إلى جوقة تبرير الظاهرة التكفيرية وانضمامه إلى مكتب الشؤون الهندية السوري. هل نرميه في سلة المهملات؟ لكن هذه المرة، وبعيداً عن ظاهرة التجنيد والتطوع لتفسير تبني فكر وثقافة ورؤية المستعمر سأعمد إلى تمييز آخر، بين المثقفين الصامتين الذين يستحقون التوبيخ والمثقفين الخونة الذين يستحقون أكثر من ذلك.

في توبيخ المثقفين الصامتين

في رسالة مؤرخة في 13 أيار/ مايو 1871، حين كان جيش الفرساويين المدعوم من جيش الاحتلال الألماني لفرنسا يسحق الكومونة وينفذ أحكام الإعدام بالمئات من ثوارها، كتب الشاعر الفرنسي الفذّ آرتور رامبو إلى أستاذه المثقف جورج إيزامبار يعيب عليه كمثقف سكوته، قائلاً له: «في العمق، لا ترى أنت في مبدئك سوى الشعر الذاتي. عنادك في الالتحاق بوكر الفئران الجامعي _ عفواً! _ يثبت ذلك. لكنك ستنتهي أبداً كقانع لم يفعل شيئاً، لأنه لم يشأ أن يفعل شيئاً. هذا من دون التفكير بأن شعرك الذاتي سيبقى تَفِهاً على نحو فظيع» (الآثار الشعرية الكاملة، ص: 323 - 325).

لم يكن رامبو يُعيب على أستاذه المثقف صمته فقط، أو يعيب عليه الاكتفاء بالتفوه بشعارات وخطابات «جمهورية وديموقراطية وإنسانوية لا يستمد منها أي خلاص». بل، كان يريد، كما قال آلان جوفروا في مقدمته للآثار الكاملة لرامبو، «أن يُدين، عبر أستاذه، جُبْن الأفكار الأخلاقوية والإنسانوية التي تتسم بالسخاء ولا تجد سبيلها إلى التطبيق، لا ولا (حتى) تعود على أصحابها بنتائج خطيرة» (المصدر السابق، ص: 12). ولو عاش رامبو أيامنا فلربما صدمه أكثر بعض الفلسفات والأفكار ما بعد الحداثية التي لا تبرر صمت المثقفين، بل وتعطي الكثيرين منهم حتى بعضاً من راحة ضمير وهم يخونون دورهم كذلك.

ورامبو كان في موقع أخلاقي يؤهله الحديث إلى أستاذه وغيره بهذه الطريقة. فهو لم يزر ثوار الكومونة ومكث معهم وكتب عنهم وعن الكومونة ربما أجمل ما كُتب عنها على الإطلاق فقط، بل ربما تكون قصيدته الساحرة عن الكومونيات اللواتي تعرضن للتشويه ودفاعه عنهن في قصيدته «يدا جان – ماري»، ضد اتهام تيوفيل غوتييه لهن بأنهن «مومسات» أجمل ما كتبه على الإطلاق. أيادي الكومونيات، اللواتي عرفن بنساء البترول لاستخدامهن قنابل البترول في مواجهة جيش فرساي، التي وصفها غوتييه بأيادي المومسات، جعلها رامبو مقدسة، ظاهرها هو المكان الذي «يقبله كل ثوري أبي». وكيف لا تكون كذلك وهي أياد حملت السلاح ضد الاستبداد وضد الاحتلال الأجنبي. وأكثر، جعل الأصفاد في تلك الأيدي التي حملت السلاح تصرخ وهنّ في طريقهن إلى سجون الفرساويين وكأنها تحتج على هذه المأساة التي حلت بهن.

> جريمة هي أن يقف المثقف في نفس الخندق مع هؤلاء المتخلفين

> تسمع أكاديمياً فلسطينياً يتحدث عن القيم الأميركية وأن امتحانها فقط سيكون بحرق دمشق

لكن هذا كان قبل اختراع «جهاد النكاح» وقبل تحول الثورة على أيدي حفنة من المتخلفين الوهابيين إلى حرب بلا هوادة على المرأة والفقراء والإنسان والعقل والتاريخ وكل شيء. جريمة هي أن يقف المثقف في نفس الخندق مع هؤلاء المتخلفين ويظن أن من الممكن تبرير ذلك لاشتراكهم معه بمعارضة النظام. هذا الصنف من المثقفين الذي يبرر التخلف ويدافع عنه ويتحالف معه لا ينتج ثورات، بل يتحمل وزر المصير الذي آلت اليه الانتفاضات العربية. لكن حتى هذه الجريمة لا تقاس مطلقاً مع الجريمة الكبرى المتمثلة ليس فقط في الموافقة على العدوان الخارجي، بل وحتى تبريره والاشتراك في حملة الإعداد له.

عن القوادين والخونة

حسناً، وقبل أن نذهب إلى من خان سوريا، لنبدأ بأحد أشهر أسفل القوادين والخونة في الأدب الغربي توضيحاً للمعنى المرجو هنا. اسمه فنيديكو كاتشانيميكو، وهو ربما يكون أشهر أسوأ وأسفل القوادين الملعونين في الأدب الغربي على الإطلاق. فهذا الوضيع لم يتورع عن استخدام جسد شقيقته جيسولا بيلا لتحقيق مآربه الرخيصة وأهدافه السياسية القذرة. لكن التاريخ، وكما يصر على تخليد الأبطال الذين لا يموتون بخروجهم من عالم الأحياء أبداً (فيعيش أمثال عماد مغنية وغسان كنفاني إلى الأبد)، أيضاً، لا يرحم أمثال كاتشانيميكو الذي فضحه دانتي بشدة في «الكوميديا الإلهية» وأسكنه الحلقة الأولى من الدائرة الثامنة وقبل الأخيرة من الجحيم. ولهؤلاء القوادين دائرة خاصة بهم في جحيم دانتي (تسمى «وديان الشر») لا يفوقها في شدة العذاب إلا هول ما يجري في الدائرة التاسعة والأخيرة فقط، دائرة الخونة وبائعي الأوطان والمتآمرين مع العدو. هذا الترتيب المتوالي للدوائر حيث يزداد هول العذاب مع كل دائرة يبدو وكأن له منطقاً داخلياً. فلا يبدو عبثياً قرب القوادين (الدائرة الثامنة وما قبل الأخيرة) من الخونة (الدائرة التاسعة والأخيرة)، بل يوحي بتشابه كبير بين الفعلتين، وإن كان ممكناً القول إنّ كل خائن هو بالضرورة من صنف القوادين وأن الاختلاف هو في المستوى والمقدار (التجارة بجسد وشرف فرد مقابل التجارة بأمة كاملة).

الأخبار
تأسست عام 1953
تصدر عن شركة «أخبار بيروت»
رئيس التحرير المؤسس
جوزف سماحة
(2006–2007)
مستشار مجلس التحرير
انسي الحاج
رئيس التحرير ـ المدير المسؤول
إبراهيم الأمين

■ نائب رئيس التحرير: بيار أبي صعب ■ مديرا التحرير: إيلي شلهوب، وفيق قانصوه ■ إقتصاد: محمد زبيب ■ محليات: حسن عليق ■ مجتمع: مهى زراقط ■ ثقافة وناس: أمل الأندري
■ المدير الفني: إميل منعم
■ رئيس مجلس الادارة ابراهيم الأمين ■ الادارة المالية: فادي خليل
■ الموارد البشرية: ريما اسماعيل
■ المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس ■ تلفاكس: 01759500 01759597 ■ ص.ب 113/5963
■ www.al-akhbar.com
■ الاعلانات Tree Ad 611115 / 01 ـ 252224 / 03
■ التوزيع شركة الاوائل 15ـ 666314 / 01 ـ 828381 / 03